فتوح بلاد الروم

إعداد

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الـحُمَيدي

الأستاذ بجامعة أم القرى

والمدرس بالمسجد الحرام

ح عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
فتوح بلاد الروم . / عبدالعزيز بن عبد الله الحميدي – الرياض، ١٤٣٩هـ

.. ص ؛ .. سم
ردمك : ٧-٥٦٣٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- التاريخ الإسلامي ٢- الدولة العباسية أ. العنوان
ديوي ٩٥٣,٧٩ ١٤٣٩/١٣٣٤

رقم الإيداع : ١٤٣٩/١٣٣٤
ردمك: ٧-٥٦٣٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا الكتاب موضوعه «فتوح بلاد الروم» .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل مادوَّنه المؤرخون من تاريخ جهاد المسلمين وفتوحاتهم ، وإنما المقصود منه ما اشتمل عليه ذلك من المواقف التي من أبرزها نشر الإسلام .

وقد بيَّنتُ في هذا الكتاب وفيما سبقه من الكتب أن المقصود من الجهاد هو نشر الإسلام في تلك البلاد عن طريق الجهاد الدعوي.

والجهاد نوعان : جهاد دفاعي وهو الذي يكون عند هجوم الأعداء على بلاد الإسلام، وهو فرض عين عل كل قادر، وجهاد دعوي ، وهو الجهاد في بلاد الكفار من أجل تحرير الشعوب من الحكومات الكافرة حتى يفهموا الإسلام ويدخلوا فيه، وهو فرض كفاية ، وقد تبين لنا في كتاب « الخلفاء الراشدون» أن قادة المسلمين كانوا يدعون الكفار إلى الدخول في الإسلام قبل كل معركة ، ومن ذلك ما قاله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لقائد الفرس رستم: إني

أدعوك إلى ماهو خير لنا ولك، العافية أن تقبل مادعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وماقاله رستم لزهرة بن الحوية لما دعاه إلى الإسلام: أرأيت إن رضيت بهذا الأمر ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟ قال: إي والله ثم لانقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجة، وسيتبين لنا مثل ذلك في هذا الكتاب .

وقد ذكرت في هذا الكتاب تاريخ الفتوحات الإسلامية في بلاد الروم في عهد الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة العثمانية.

تمهيد

تَقَدّم الكلام على مواقف فتوح الشام في عهد أمير المؤمنين عُمَر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وبقي الإشارة بإيجاز إلى المواجهات القتالية المستمرة بين دولة الإسلام في الشام ودولة الروم منذ عهد عُمَر رضي الله عنه ، فإن الحرب لم تهدأ لبقاء دولة الروم في كثير من ممالكها .

وبعد استقرار حكم المسلمين في الشام في أواخر عهد أمير المؤمنين عُمَر رضي الله عنه فإن الروم أيسوا من عودة الشام إليهم فلم يفكروا في غزوه إلا في فترات اختلاف المسلمين وحدوث الفتن بينهم كما هو الحال في عهد أمير المؤمنين عَلِيّ رضي الله عنه ، حيث عزم ملك الروم على غزو الشام ، فهدده معاوية رضي الله عنه بالعزم على الصلح مع عَلِيّ رضي الله عنه ثم التوجه نحوه لتأديبه .

وكذلك في عهد عبد الملك بن مروان حينما كان في قتال مع مصعب بن الزبير .

أما فيما عدا ذلك فإن المسلمين كانوا ينظِّمون الغزوات ضد الروم في أكثر السنوات صيفًا ويسمونها الصوائف، وكان القصد من هذه الصوائف إضعاف دولة الروم وحماية دولة الإسلام ، وكانوا أحيانًا يطيلون الغزو ويتوغلون في بلاد الروم ويشْتُون بها ، وقد بلغوا القسطنطينية عدة مرات .

وحينما قامت دولة بني العباس عام اثنين وثلاثين ومائة شُغِل خلفاؤها بالحروب الداخلية ، ولم تستقر إلا في أواخر عهد المنصور الخليفة الثاني ، فلم يكن هناك جهاد إلا في عهد الخليفة الثالث المهدي، حيث بدأ الجهاد مع الروم .

ثم استمر الجهاد بعد ذلك مع الأعداء بنسبة قليلة متباعدة، وأغلبه جهاد الدفاع عن دار الإسلام .

وقد كان الجهاد في العهد العباسي موجها ضد ست من الأمم : الروم ، وأهل المشرق وأهل الهند ، والصليبيين ، والتتار ، ونصارى الأندلس .

وكان الجهاد في العصر العباسي الأول موجها من الخلفاء أنفسهم، وذلك إلى نهاية عهد المعتصم، ثم أصبح موجها من الدويلات التي استقلت بشؤون حكمها مع بقاء تبعيتها للدولة العباسية. وإن كان بعضها قد استقلت تماما كالدولة الأموية بالأندلس وماتلاها من دويلات .

علما بأن الدولة العباسية قد انتهت من بغداد في عام ستة وخمسين وستمائة هجرية عندما اجتاحها التتار، ولكنها عادت في عام ثمانية وخمسين هجرية في مصر حينما بايع الظاهر بيبرس أحد بني العباس بالخلافة ، غير أنها ظلت خلافة بالاسم وكان الحكم بيد المماليك إلى أن قضى العثمانيون على المماليك فانتهى وجود الخلافة العباسية .

ومازال القتال دائرًا بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى أن زالت بلاد الشام ومصر عن الروم في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ثم زال شمال أفريقية عنهم في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وفي عهد بني

أمية، ودخلت كل هذه البلاد في دولة الإسلام ، ولكن الحروب ظلت بين الروم والمسلمين من جهة بلاد الشام ، وكان إنشاء هذه الحروب غالبا من المسلمين ، ولكن دولة الروم كلما آنست من دولة الإسلام ضعفا أغارت جيوشها على أطراف بلاد المسلمين .

فتوح بلاد الروم

في

عهد الأمويين

جهاد الروم في عهد معاوية

الغزوات الأولى :

غزا المسلمون بلاد الروم في عهد معاوية رضي الله عنه عدة غزوات قبل الغزوة الكبرى التي كانت بقيادة يزيد بن معاوية .

وقد ذكر المؤرخون هذه الغزوات باختصار ، فمن ذلك أنهم ذكروا أن المسلمين غزوا بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين هجرية، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم[1] .

ثم غزوهم في سنة ثلاث وأربعين هجرية بقيادة بسر بن أرطأة .

ثم غزوهم في سنة ست وأربعين هجرية بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأقاموا فيها فصل الشتاء .

ثم غزوهم في سنة ثمان وأربعين هجرية بقيادة أبي عبد الرحمن القيني وأقاموا في الشتاء في أنطاكية[2] .

---

(١) البطارقة هم كبار القادة من الأمراء- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ص١٢٧.

(٢) تاريخ الطبري ٥/ ١٧٢– ٢٣٢،البداية والنهاية ٨/ ٢٥ – ٣٤ ، تاريخ ابن خلدون/ ٩ ، وأنطاكية تقع الآن جنوب تركيا .

غزوة القسطنطينية (عام ٤٩ هـ) [١] :

وبعد أن قام أمير المؤمنين معاوية ﷺ بإرسال عدد من الجيوش في عدة سنوات رأى أن الفرصة مناسبة لبعث جيش كبير لغزو القسطنطينية بعد أن أضعف دولة الروم وبث الرعب في قادتها وجنودها ، فبعث جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه يزيد في سنة تسع وأربعين ، وفيه عدد من الصحابة منهم أبو أيُّوب الأنصاري وعبد الله بن عَمْرو ابن العاص وعبد الله بن عَبَّاس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » أخرجه الإمام البُخَارِيّ [٢] وكان ذلك الجيش أول من غزا القسطنطينية .

ومما جرى في هذه الغزوة ما أخرجه الإمامان أبو داود والتِّرمذِيّ من حديث أسلم أبي عمران التجيبي قال : غزونا من المدينة نريد

---

(١) القسطنطينية هي عاصمة دولة الروم ، واسمها حاليًا «اسطنبول» .

(٢) صحيح البُخَارِيّ ، رقم ٢٩٢٤ ، الجهاد (٦/ ١٠٢) .

القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد [1] والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو فقال النَّاس: مه ، مه ، لا إله إلا الله ، يلقى بيديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيُّوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأَنْصَار ، لما نصر الله تعالى نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا : هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله تعالى :﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] . فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيُّوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية [2] .

فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في

---

(١) يعني بذلك الجماعة الذين غزوا من المدينة ، وفي رواية الترمذي : وعلى الجماعة فضالة بن عبيد .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ٢٥١٢ ، كتاب الجهاد (٣/ ٢٧) ، سنن الترمذي ، رقم ٢٩٧٢ ، كتاب التفسير ٥/ ٢١٢ .

سبيل الله تعالى ، وأن الهلاك الحقيقي هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام .

ولقد قاتل المسلمون أعداءهم حول أسوار القسطنطينية ، واستشهد أبو أيُّوب الأنصاري ﷺ هناك، وقد أوصى قبل موته أن يقربوه مااستطاعوا من أرض الروم فدفنوه قريبًا من السور[1] .

ولم يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية هذه المرة لقوة أسوارها ومتانتها واستعداد الروم لتحمل الحصار لمدة طويلة ، فعاد المسلمون إلى بلادهم ، ولكنهم كسبوا من وراء ذلك إظهار قوة دولة الإسلام وأن بإستطاعتها أن تغزوهم في عقر دارهم ، وهذا يجعل الروم يرتدعون عن محاولة غزو بلاد الإسلام في حال ضعْف الدولة الإسلامية .

(١) انظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٢ ، البداية والنهاية ٨/ ٣٤ – ٦١ .

جهاد الروم في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك عام ٨٦هـ :

إن أهم المعارك الحاسمة بين المسلمين والروم في هذا العهد ما ذكره المؤرخ ابن أعثم الكوفي قال : وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم وأخذ الشام من أيديهم ، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فنادى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها النَّاس إن العدو قد كلَب[1] عليكم وطمع فيكم وَهُنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى ، واستخفافكم بحق الله ، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله ، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي ؟

قال : فأجابه النَّاس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيهم من الجهاد وعزموا على ذلك .

---

(١) أي أظهر العداوة .

قال : فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكُتب له أربعة كتب ، كتاب منها إلى أبان بن عثمان – وهو عامله على الحجاز – أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم ، وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخَوْلانيّ – وهو عامله على اليمن – أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن – وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان – وهو عامله على بلاد مصر – أن يشخص إليه بنفسه في أجناد مصر ، وكتاب إلى الحجاج بن يُوسُف أن يوجه إليه بأجناد أهل العراق .

ثم كتب أيضًا إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما[1] .

هذا وإن كثرة هذه الجيوش التي حشدها عبد الملك بن مروان من أنحاء بلاد الإسلام دليل على ضخامة الجيش الرومي الذي عمل الروم على تجهيزه لغزو بلاد المسلمين .

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٢ ، وهذا الكتاب للمؤرخ أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي ، المتوفي سنة ٣١٤هـ وأرمينية وأذربيجان تقعان بين بلاد فارس شرقًا وبلاد الروم غربًا.

وإن ما جاء في خطبة عبد الملك هذه من التذكير بطاعة الله تعالى، واجتناب معصيته والاهتمام بالجهاد في سبيله، وأن ذلك حصن الأمة الحصين وسبب رهبة الأعداء منهم ، وأن الإخلال بذلك سبب هوان أمة المسلمين على أعدائهم .. إن اهتمام عبد الملك بذلك يدلنا على الوجه الآخر لخلفاء المسلمين في عصورهم الذهبية الذي عَتَّم عليه بعض المؤرخين ولم يبرزوه بالدرجة الكافية بينما أبرزوا خلافات الولاة وحروبهم الداخلية وأنماط حياتهم التي تميل أحيانًا إلى مظاهر الدنيا بقدر كبير من البسط والتفصيل .

إن هذه الخطبة وأمثالها تعدُّ امتدادًا لما اشتهر به عبد الملك من التفوق في العلم الشرعي حيث كان من أكابر طلاب العلم الذين تعمقوا في العلم على علماء المدينة النبوية ، كما تعدُّ امتدادًا لما اشتهر به في شبابه من العبادة حيث كان وإخوة له يرابطون في المسجد النبوي بين الصلوات للصلاة والذكر والتلاوة .

إننا لا ننكر أن من المؤرخين من يذكر ما للولاة من بعض المحاسن وما عليهم من المآخذ ، ولكن الاهتمام في ذلك كان في ذكر

جوانب الإصلاح التي تتعلق برفاهية الأمة وتقوية أمنها ورخائها .

والذي ينبغي لفت النظر إليه إلى جانب ذلك ، الإشارة إلى مدى فهم أولئك الولاة للإسلام وتطبيقهم لأحكامه وآدابه ، ومدى صلتهم بالله تعالى وتذكرهم لعوامل النصر وعوامل الانهزام ، وعوامل التمكين في الأرض وعوامل الانهيار الحقيقية التي تقوم على تطبيق الإسلام في الأرض أو الإخلال بشيء من ذلك .

ومما ينبغي الإشارة إليه أخيرًا ، الإشادة بدقة الرصد الحربي لدى المسلمين في عصورهم الأولى، حيث علم عبدالملك عن عزم ملك الروم على غزو بلاد المسلمين بجيش كبير فأعد للأمر عدته واستعد لدفع البلاء قبل حلوله بما يتناسب مع حجمه وفي الوقت المناسب للقضاء عليه .

قال المؤرخ ابن أعثم في روايته المذكورة :

فلما اجتمع النَّاس من جميع الأمصار قام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها النَّاس إنكم قد علمتم ما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب ، ألا وإني قد

عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى « أليون » صاحب الروم فإنه قد طغى وبغى ، وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعًا كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومُبَدِّدٌ شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه، وقد جُمِعتم من كل بلد ، وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة ، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابني مسلمة وقد أَمَّرته عليكم فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور، قال فقال النَّاس : سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين ، قال : فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجًا عن مدينة دمشق في خلق عظيم .

قال : وخرج إليهم عبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك ، فجعل على كل قبيلة من القبائل من ساداتهم يقتدون برأيه، وينتهون إلى أمره، ثم قال لابنه : يا بني إني قد نَدَبْتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش فجعلته لك شرفًا وذكرًا إلى آخر الأبد ، فكن يا بني للمسلمين بارًّا رحيمًا وأميرًا حليمًا ، ولا تكن عنيدًا كفورًا ولا مختالاً فخورًا ، واعلم يا بني أن الروم سيلقونك بجيش كثير وجمع كبير ، فثق بالله واستعن

به وتوكل عليه، فكفى به وليًّا وناصرًا ، وانظر يا بني لا يَهُولَنَّك ما ترى من جمع الروم وكثرة عددهم فإن الله تبارك وتعالى بفضله ومنِّه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومزلزل أقدامهم ، ومعك يا بني بحمد الله خلق كثير ، فإن عزمت على حرب عدوك فاجعل عمك محمد بن مروان على ميمنتك ، واجعل ابن عمك محمد ابن عبد العزيز على ميسرتك، واجعل محمد بن الأحنف بن قيس على طلائعك ، وعبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان على جناحك واعتمد في حربك على البَطَّال بن عَمْرو فإنه بطل شجاع مقدام [شياع] [1] وانظر يا بني لاتكسل ولا تفشل ولاتجزع ولاتهلع، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ما أوصيتك به استوجبت من الله المقت ، ومن عباده البغض ، ومن ملائكته اللعن فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٦].

(١) هكذا وردت في الرواية ولم أجد لها معنى يناسب السياق إلا أن تكون « مُشَبَّع » بمعنى شجاع ولكن هذا الوصف ذكر قبل ذلك، والبطال اسمه عبد الله بن عَمْرو الأنطاكي .

قال : ثم أقبل عبد الملك بن مروان إلى النَّاس فقال : أيها النَّاس المسلمون أنتم إخواني وأعواني، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي ، وقد رميت به في نحر العدو ، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل، ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم ، فأعينوه واعضدوه وقوموا معه ، وانصروه إذا كسل ، وشجعوه إذا فشل ، وأيقظوه إذا غفا، وفهموه إذا هفا ، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان ، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز، فإن أصيب فاختاروا من أحببتم الأفضل فالأفضل ، والخيار في ذلك إليكم ، والسلام .

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبَّل بين عينيه وقال : السلام عليكم يا ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي ، فإن نفسي تحدثني أني لا أراك ولا تراني بعد هذا أبدا ، ثم بكى ، وبكى النَّاس لبكائه ، وودع النَّاس بعضهم بعضًا ، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة ، وذلك في أول يوم من رجب بعد صلاة الجمعة [1] ، وعبد الملك بن مروان يشيِّعهم

(١) يعني من سنة ست وثمانين كما سيأتي في سياق مواقف المعركة ، وانظر الكامل ٤/ ١٠٦ .

إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق[1]،فأقاموا يومهم ذلك هناك، فلما كان من الغد ودعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه .

قال : وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزيِّ الحَسَن والخيل العتاق[2] والبراذين المطهَّمه حتى نزلوا بموضع يقال له « مرج دابق »[3] .

قال : فلم يزل مسلمة هناك نازلاً والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم[4] .

هذا وإن في خطبة عبد الملك هذه ووصيته لولده ولجنده مثلاً لما قَدَّمتُ ذكره عنه من قوة ارتباطه بالله تعالى وإدراكه العميق لعوامل

---

(١) الفرسخ يعادل ستة كيلومترات–معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية الدخيلة ص٢٤١

(٢) الخيل العتاق يعني الأصيلة، والبراذين المطهمة هي البغال القوية .

(٣) هي قرية قرب حلب بينها وبينها أربعة فراسخ – معجم البلدان ٤/ ٣ .

(٤) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٣ – ١٢٥ .

النصر المعنوية ، ولا غرابة عليه في ذلك فهو من التابعين الذين نهلوا من علم الصحابة رضي الله عنهم وتلقوا التربية على أيديهم ، ففي خطابه لجيش المسلمين يبين ما جمعه الروم لهم من الجموع الكثيرة ثم يحكم على نتيجة المعركة معهم بحسن الظن بالله تعالى وقوة الأمل في نصره أولياءه وإهلاك أعدائه ، وهذه بداية طيبة لتلك المعارك التي سيخوضها معهم المسلمون ، حيث لم يَعْتَدَّ عبد الملك بقوة جنده وحسن استعدادهم المادي، بل جعل الأمر كله بيد الله تعالى .

وفي وصيته لابنه مسلمة نجده يوصيه بحسن السياسة مع جنده حيث يذكِّره بالالتزام بمكارم الأخلاق التي تجعله محبوبًا لدى جنده ، فأوصاه بالبر الذي يصله بجنده ، وبالرحمة التي تحجزه عن الظلم، وبالحلم الذي يملك به غضبه فلا يتصرف إلا بعقله السليم ، ونهاه عن مساوئ الأخلاق التي تجعله مُبغَضًا لدى جنده، حيث نهاه عن العناد الذي يدفعه إليه الاعتداد بالرأي وعدم قبول مشورة أهل الخبرة ، ونهاه عن كفر النعمة الذي يتمثل بعدم تقدير أهل الفضل ، والإمساك عن شكرهم ، وذلك يحجب عنه طاقاتهم الفعالة وقدراتهم

المؤثرة فيضعُف إنتاجهم ويكون الفشل سبيلَه وسبيلهم ، ونهاه عن الخيلاء والفخر ، لأنَّ هذا الخلق السيئ يطمس من فكر الإنسان محاولة إدراك عيوبه والطموح نحو الكمال ، حيث يكون الفكر مشغولاً بتلمس ما يرضي غرور النفس وإن كان سرابًا لا وجود له في الواقع، إلى جانب كونه يحجب عن القائد نتاج فكر المفكرين من أتباعه ، ويحدد علاقتهم به بنوع من المجاملة، والاكتفاء بأداء الواجبات الضرورية الظاهرة بشيء قليل من الكفاءة والطاقة .

إلى آخر هذه الوصايا التي من أبرزها نهيه ابنه القائد عن الكسل والفشل والجزع والهلع، وتذكيره بأنه إن وقع في شيء من ذلك فقد استوجب المقت من الله تعالى ، والبغض من عباده واللعن من ملائكته ، وهو تأكيد مرة أخرى على لزوم الصلة بالله تعالى وتذكُّر عظمته ورقابته ، وأن المعوَّل عليه في جميع الأمور هو طلب رضوانه واجتناب سخطه، وعلى ذلك يترتب طلب رضوان الملائكة والمتقين من عِباد الله جل وعلا .

ومن أبرز تلك الوصايا تذكير الجند بنصر القائد إذا كسل

فتوح بلاد الروم ١٤٣٨/١١/١٥هـ

وتشجيعه إذا فشل ، وإيقاظه إذا غفا ، وتفهيمه إذا هفا، فالقائد لا كيان له ولا قوة إلا برقابة جنده ونصحهم إياه ، وبذلهم كل طاقتهم معه في خدمة الهدف الأعلى الذي يجاهدون من أجله .

هذا وقد حصل ما توقعه عبد الملك من عدم لقائه بابنه مسلمة بعد ذلك اليوم حيث توفي عبد الملك بعد ذلك بشهرين ونصف في منتصف شوال من عام ستة وثمانين[1] .

(١) الكامل ٤/ ١٠٢ .

فتح عمورية[1]

سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها«شمعون »فوجه إلى المسلمين قائدًا من قادته يقال له «وَرْسيب »ومعه أربعون ألفا، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفا ، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائده البطَّال بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم ، واقتتلوا ، وأسرع القتل في المشركين، وحمل«ورسيب» على البطال وهو لايعلمه، وعلم البطال أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلا وانهزم جيشه .

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورَجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين،فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالا شديدًا،وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه،وصاح صائح المسلمين:أيها الأمير البشرى فقد قتل الله شمعون،فكبَّر مسلمة وكبر المسلمون معه،

(١) مدينة مشهورة في التاريخ، وتقع حاليًّا جنوب غرب مدينة أنقرة في تركيا- موسوعة ألف مدينة إسلامية ص ٣٤٤ - .

وإذا بالبطال قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة .

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم ، ثم حمل وحمل الناس معه ، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها .

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول عبدالرحمن بن صعصعه بن صوحان العبدي :

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعةْ ذو البأس والإقدام عند المعمعةْ

إذا التقى الأبطال وسْـط المعمعـةْ والـروم قد سارت إلينا مجمعةْ

ومـن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي :

أنا ابـن ذي الفضل فتى بجيلةْ جـرير شيخي ولـه فضيلةْ

فـضيـلـة عـظـيمـة جـلـيـلةْ مـن النبيِّ صـاحـب الوسيلةْ[1]

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٥ – ١٣٦ .

وفي هتين المعركتين أظهر المسلمون بسالة عالية وثبتوا لأعدائهم ثباتًا عظيما، فقد انتصرت مقدمة جيش المسلمين المكونة من عشرة آلاف بقيادة البطال بن عمرو على مقدمة جيش الروم المكونة من أربعين ألف مقاتل بقيادة ورسيب، وكان للبطال بن عمرو الأنطاكي أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب وقائد جيش الروم أمير عمورية شمعون ، ومعلوم أن قتل قادة العدو يوقع الفشل في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك.

فتح نقفورية

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجالة ، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه : أن احملوا ، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة ، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: ياأهل الشام لاشام لكم ، وياأهل العراق لاعراق لكم ، وياأهل مصر لامصر لكم ، إن أنتم ولَّيتم الأدبار ، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين.

ونادى محمد بن مروان وقال : ياأهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصلبان ! أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم.

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم ، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة

على بيضته [والبيضة مايلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكَّسه إلى الأرض ، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقفهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهام ، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة بن عبد الملك : يوجب الله لكم الرضوان ، فاجتمع عليه الناس ثم تواصوا بالصبر،ووعظ بعضهم بعضا،وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف،وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولَّوا الأدبار والسيف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلول بعضهم على بعض .

وسبق البطال بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه ، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها ، وغنموا ما فيها[1] .

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٧ – ١٣٨ .

وبعد : فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم ، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزاما كليًّا فلن يبقى منهم أحد حيث لاحصون لهم إلا ظهور الخيل .

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد ، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسؤولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها ، وهذه لفتة جيدة حيث عدَّهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام ، فعظَّم في نفوسهم الشعور بالمسؤولية ، وانطلقوا في هجومهم على الأعداء بطاقاتهم الكاملة، كما ذكَّرهم محمد بن مروان بما وعده الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين ، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا .

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعزعوا لما سقط قائدهم على الأرض،بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهم،وهذا مثل لإدراك المسؤولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه .

فتح السماوة الكبرى

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفي: وسار المسلمون نحو مدينة « السماوة الكبرى » وبها يومئذ بِطْريق من البطارقة الرومية يقال له « إفريطون » في ثمانين ألفا من الروم ، وقد حصَّن السماوة قبل ذلك، ونصب على سورها عشرين منجنيقا وثلاثين عرادة [1] ، قال: فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة ، ثم أمر بمجانيقه فنُصبت عليها من كل جانب وترامى الفريقان رميا متداركا ، ودامت الحرب بينهم أربعين يوما لايفترون عن ذلك ليلا ولانهارا .

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له : «قرطس» إلى مسلمة بن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفَّر له [2] وقال : أيها الأمير إن السماوة حصن حصين، وفيها خلق كثير ، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يُفتح لك من داخلها

---

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق .

(٢) يعني وضع يده على صدره وطأطأ رأسه تعظيمًا على عادتهم .

فتدخلها ، وإن أفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ ، وغصبني على ابنة لي فأخذها مني قهرا ، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك ، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك ، واقترب من باب المدينة ، والْقَ الحرب بينك وبين الروم ، وقدِّم أبطال عسكرك بين يديك فإني فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك .

قال : فقال له مسلمة : إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي.

قال : فقال له قرطس : أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ماأحببت ، قال : ثم رجع قرطس إلى المدينة .

فلما كان من غد عبَّى مسلمة أصحابه كما كان يعبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة – وهي السماوة – وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه ،قال :ثم عَطْعَطَت الروم[1]، وكبَّر المسلمون فاختلط الفريقان ، واشتبكت الحرب على باب المدينة ، وفتح ذلك البطريق الباب ، واقتحم المسلمون معه ، فجعلوا يقتلون ويأسرون.

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم .

قال : وفتح أفريطون بابًا آخر من أبواب السماوة وخرج هاربا على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية[1] .

وبعد : فإن في هذا الخبر مثلا من استعداد المسلمين الجيد، وذلك من ناحية إعداد القوة لقتال الأعداء بما يتناسب مع عصرهم، حيث كانوا يحملون معهم عددًا من المجانيق التي تعادل المدافع في العصر الحاضر،وقد كان عددها وافرًا حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب على المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ليكونوا في ذلك على الأقل مثل أعدائهم، إلى جانب مايتفوقون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي .

وفي هذا الخبر مثل حَيّ لأثر العدل ومكارم الأخلاق في كسب

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٩ – ١٤٠ .

القلوب والظفر بولائها ونصرتها ، بغضِّ النظر عن العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة ، والتي أبرزها الاتفاق في الدين ، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية .

كما أن فيه مثلا حيًّا لأثر الظلم ومساوئ الأخلاق في نفرة القلوب وميلها إلى الانتقام ، والتشفي من الظالمين ، على الرغم من الاتفاق في العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة .

فهذا القائد الرومي الذي كان من عظماء ذلك البلد والذي أعلن ولاءه للمسلمين واستعداده لنصرتهم ، ثم قام بتنفيذ ذلك حسب اتفاقه مع المسلمين ، إنما دفعه إلى ذلك اعتباران : الأول أنه تعرض للظلم وانتهاك العرض على يد أمير تلك المدينة ، فنفر منه وتربص الفرصة المناسبة للانتقام منه ، ولاشك أن النفوس الأبية تتحمل كثيرًا من أنواع الظلم ولكنها لاتتحمل انتهاك أعراضها .

والاعتبار الثاني : ملاحظة مااشتهر به المسلمون من العدل ومكارم الأخلاق ، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسبقهم إلى كل مكان يريدون فتحه ، فتكون نفوس الشعوب مهيأة لقبول حكم

المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين .

فلو كان المسلمون المحاصرون لتلك المدينة من جملة الأمم التي تريد الهيمنة على الأرض لبسط جبروتها وظلمها لَمَا كان هناك فرق بينها وبين ذلك الجبار المسيطر على تلك المدينة ، وإذًا فتحمُّل جبروت القريب أولى من تحمل جبروت البعيد، ولكن لما سَبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة في فتوحاتهم كان ذلك مشجعا لكل من مال إلى تقدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يُظهر نصرتهم.

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسؤولية ، كي لايستهينوا بمن تحت ولايتهم ، وأن لايغتروا بما في أيديهم من القوة والسلطان ، فإن النفوس الأبية تصبر على الضيم مادامت تحت الغلبة والهيمنة ، فإذا لاحت لها فرصة للتشفي والانتقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر ، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصرفاتهم بشرع الله تعالى ، حيث يغلِّبون جانب المصالح العامة على المصلحة الخاصة ، ويراعون جانب الإبقاء على دولة الإسلام والحفاظ

على عزة المسلمين .

هذا وإن ماسخَّره الله تعالى في هذه المعركة من خروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداده لنصرة المسلمين يعدُّ مثلا من أمثلة تأييد الله تعالى أولياءه المؤمنين لَّما كانوا أهلا لذلك ، ولَما يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام ، فقد كانت تلك المدينة من المناعة بحيث يصعب على المسلمين فتحها من خارجها فقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم .

فتح مدينة المسيحية

قال ابن أعثم الكوفي : واقترب المسلمون من المسيحية ، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة ، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه ، فخرج بهم من المسيحية ، وبين يديه بطريق يقال له : شماس في ثلاثين ألفا ، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفا .

قال : فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديدًا وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة ، وقد قُتل منهم جماعة ، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية ، واشتبكت الحرب على باب المسيحية .

قال : وجعل « شماس » البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه ، حتى قتل نفرا من المسلمين .

قال : وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين ، وتقدم أفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم ، فجعل يكافئ المسلمين[1] .

---

(١) يعني يظهر كفاءة الروم بما يشبه كفاءة المسلمين .

قال : وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني بن امروان] وهو يرتجز ويقول :

قد علم الروم ومـن والاها وكل علج أقلف ساواها

أَنِّي إذا الحرب خَبَتْ لظاها أَلقيتُ أخراها على أولاها

قال : واختلفا بطعنتين ، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتمَّ المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غمًّا شديدًا ، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول :

لابد من عرض ومـن مقام عـــلى مليك صمَدٍ منِعْام

فجـاهدي يانفس لاتُلامي بـكل عَضْبَ ذكَــر حسام

ثم حمل البطال على إفريطون ، والتقيا بطعنتين ، طعنه البطال طعنة جدَّله قتيلا ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على رمحه ، ثم كبَّر وكبر المسلمون معه .

قال : ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكسارا ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب ، فولَّوا الأدبار وكبَسَتْهم خيل المسلمين ، وأخذتهم السيوف ، فقُتل منهم خلق كثير

وانهزم الباقون على وجوههم ، وسلَّموا مدينة المسيحية بجميع مافيها فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا ، واحتووا على غنائمها [1].

هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف أعلق عليها بإيجاز :

الموقف الأول في مقدرة المسلمين الحربية التي تمثلت في سرعة عودتهم إلى القتال بعد الانهزام ، وهذا يدل على أن ماحصل لهم إصابة مؤقتة بسبب حرب مفاجئة لم يُعدُّوا لها أو بسبب تقصير في تطبيق بعض عوامل النصر ، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا ،ودحروا قوة أعدائهم .

والثاني موقف محمد بن عبد العزيز بن مروان لما أقدم على مبارزة ذلك الرومي الشجاع ، وإن محط الإعجاب في ذلك ليس في مجرد المبارزة ، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقسى مراحل الحرب، ويغامرون بأنفسهم في موقف يكونون فيه أقرب إلى الموت ، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم .

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٤٠ – ١٤١

أما الموقف الثالث فهو في شجاعة البطال بن عمرو وإقدامه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محمد بن عبدالعزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه ، مع ماشاهده من مصرع صاحبه ، وعدم تهيُّبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسبب ماأحرز من نصر .

ثم إن عظمة هذا البطل المقدام تبدو في سرعة استحضاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف ، وماسيُقدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب ، وإن هذا الذكر القلبي واللساني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العالية التي اكتسبها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت .

فتح مدينة « بدروق »

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى «بدروق» فلما علم بذلك أميرها «لبوس» استنجد بملك الروم فأمده بخمسين ألفا إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفا .

ولما دنا منهم المسلمون كبَّروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعبًا وخوفا ، وتقدم قائدهم « لبوس» أمام جيشه ، فنظر إليه البطال بن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه ، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة : أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو : كُفيتَ أيها الأمير ، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في مثل هذا الوقت .

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قـل للأمير ذي الصِّيال مسلمة وابـــن الكرام السادة المكرَّمـة
ومُقعصي الأبطـال يوم الملحمة إني أنـــا البطال جدي علقمـة
كـم ســاعدٍ وبيضةٍ وجمجمـة طرحتها عــند هياج الغمغمـة

وأسْمَر روَّيته مـــــــن غلصمة وأنـــت محمود بـكـل مكرمـة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف ، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم ، وأمكنته الفرصة من « لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلا ،وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا،وفرَّ الباقون على وجوههم لايعرِّجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتووا غنائمها وكانت كثيرة .

ثم انشأ البطال بن عمرو يقول :

لقـد عـلم الروم الأراجس أننا قتلنا لـــدى الهيجاء منـها رئيسهـا

تـــــركنا لبوسا في القتام مجدَّلاً فَقَبَّح ربـــــي ذو الجـلال لبـوسها

ونـحن أبَدْنا في العجاج كُماتَهم ونحـن هـزمـنـا جيشها وخميسها

ونحن إذاماالحرب شبت وأرهجت نخـــوض لظاها عـنوة ووطيسها

ونـــحـن قسمنا فيئـها ونساءها ببـدروق لمـــا أن أثـرنا شـريسهـا

وكـان لـبوسٌ كهفها وعمادهـــا وكـــــان لعمري ليثها وهموسـها

وكانت لـــــه الأبطال تسطو لأنه إذا نـــــاب أمـر لم تجده حَسيسَهـا

وسوف نُكِرُّ الخيل فينا شوازبا عَنَا جِيجَ تبدي فـي الغـبار جَسيسَها

نريـد بها «أليون» كيمـا نثيره ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها[1]

وهكذا عمل البطال كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيرًا من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم .

ولقد عاد مسلمة بن عبد الملك بجيش المسلمين إلى الشام بعد هذه الفتوحات والانتصارات الباهرة على الروم، لأنه لم يكن من أهداف تلك الحملة غزو القسطنطينية وفتحها، وإنما كان الهدف منها تأديب الروم ، حيث كانوا يريدون الهجوم على بلاد الشام .

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧/ ١٤١ – ١٤٣ .

جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك

محاصرة القسطنطينية عام ٩٨هـ :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه : أنه سمع النبي ﷺ يقول : «لتفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» .

قال : فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية[1].

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد بن عبد العزيز قال: أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همّ بالإقامة ببيت المقدس، وجمع الناس والأموال بها، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمة بن عبد الملك ، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبرُ أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبَتْ جماعةً فيهم امرأة لها ذِكْر، فغضب وقال: ماهو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزونَّهم غَزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥ .

ذلك . ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال: أشيروا عليّ . فقال موسى : ياأمير المؤمنين ، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية[1]، ومن العراق إلى خراسان، كلّما فتحوا مدينة اتخذوها دارًا وحازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوب فافتح مافيها من الحصون والمطامير والمَسالح ، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدِّمت حصونها وأوهيتْ قوتها،فإنهم سيعطون بأيديهم . فالتفت إلى مسلمة فقال :ماتقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمرٌ إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولاينقضه رأيتُ أن تعمل منه ماعملت ولايأتي على ماقال خمس عشرة سنة ، ولكنّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البرّ والبحر القُسطنطينية فيحاصرونها ، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عَنْوة ، ومتى مايكون ذلك فإنّ مادونها من الحصون بيدك . فقال سليمان : هذا الرأي . فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر

(١) أفريقية كانت تطلق عند العرب على بلدان المغرب تونس والجزائر والمغرب، وتطلق حاليًا على قارة أفريقيا كلها- معجم أماكن الفتوح ص ١٤- .

وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَاريّ، وعلى الكُل مسلمة بن عبد الملك .

قال الوليد بن مسلم : فأخبرني غيرُ واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية ، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها : فاقدروا لذلك قدْره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلم الناس ، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية : فانفروا على بركة الله تعالى ، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا ، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة .

قال الذهبي : وأما مسلمة فسار بالجيوش ، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعوار، وأخذ عهوده ومواثيقه على المناصحة والوفاء ، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برَّح بهم الحصار ، وعرض أهلها الفدية على مسلمة ، فأبى أن يفتحها إلا عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً ، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال : إن ملَّكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه ، فخرج وقال لمسلمة: قد

أجابوني أنهم يفتحونها ، غير أنهم لايفتحونها مالم تُنَحِّ عنهم، قال: أخشى غدرَك، فحلف له أن يدفع إليه كلَّ مافيها من ذهب وفضَّة وديباج وسبْي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعُلوفات من خارج، فملأوا الأهراء[1] وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة ،فكرّ راجعًا ، فأدرك شيئا من الطعام، فغلَّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاءَ العهد، فأرسل إليه إليون يقول : مُلك الروم لايبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهرًا ، حتى أكل الناس في العسكر الميتةَ ، وقُتل خلق ، ثم ترحل[2].

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبيرين موسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك في

---

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام .

(٢) تاريخ الإسلام / حوادث ٨١ – ١٠٠ ص ٢٦٩ – ٢٧١ ، وانظر تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦ .

غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أوَّلاً ، وإنما تفتح بلاد الروم شيئا فشيئا فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها دارًا ، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي ، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لايتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر و البحر ، وقد وافق سليمان على هذا الرأي على الرغم من كونه مخالفا لآراء أهل الخبرة الحربية .

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم ، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية .

ولقد بذل المسلمون جهودا عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاد المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ماقبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلا ميسورًا .

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين ، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم ماداموا تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها .

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير : وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعا شديدًا، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أن لايقلع عنهم حتى يبنوا له جامعا كبيرًا بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعا ومنارة ، فهو بها إلى الآن

يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة .

قال : وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعا [1] ، وأحيى بعزمه قصورا وبقاعا ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه [2] .

(١) القلاع هي الحصون المبنية على رؤوس الجبال – معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ص ١٢٣ – .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٤١ – ٣٤٢ .

جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك

مازال المسلمون في جهاد مع الروم ، ومن أبرز معاركهم معهم ماجرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشًا بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطال ، فجاء الخبر إلى البطال بأن ملك الروم « إليون » قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران[1] فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ، ودهمهم الجيش ،فاقتتلوا قتالا شديدًا، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولايتجاسر أحد أن ينوِّه باسمه خوفا عليه من الروم فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطا منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يَقْتُلون ويأسرون وقُتل

(١) هي مدينة تقع جنوب تركيا وتسمى حاليًا أورفه – معجم أماكن الفتوح ص ٣٨ – .

الأمير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها .

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له : ماهذا ياأبا يحيى ؟ فقال: هكذا تُقتَل الأبطال ، فاستدعى إليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، تأمر مَن معك من المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة علي ودفني ، ففعل الملك ذلك ، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى [1].

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقودًا من الزمن، فما أعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر ! وماأسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة !!

وقد كان ملك الروم « إليون » يعرفه جيدا لأن « إليون » كان مع

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٥ .

المسلمين ، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية، ثم خدعهم كما سبق، وملَّكه الروم عليهم، والظاهر أن حرصه على علاج البطال وبقائه حيا من أجل أن يأخذه أسيرا فيساوم به قادة المسلمين لكون البطال من عظماء المسلمين وأبطالهم .

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية ، وكان له – بعد الله تعالى – فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة .

وعلى الرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته ، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطال بن عمرو ، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطال ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى[1] واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطال ولكنه ذكر أن كنيته أبو الحسين ، واتفقا على نسبته إلى أنطاكية لأنه كان قد نزلها[2] .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣١٧ ، ٣٤٥ .

(٢) الكامل ٤/ ٢٤٨ .

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثًا اسمه الحسين فمرة يكنى بيحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين ، ولكنه قد اشتهر في الحروب باسم البطال سواء عند المسلمين أو عند الروم .

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها ، وقد انطلق إليهم «إليون» بجيشه فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البُرُد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها[1] .

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٧ .

فتوح بلاد الروم

في

عهد العباسيين

١ - جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد

غزو القسطنطينية :

قام أمير المؤمنين هارون الرشيد بغزو بلاد الروم في عهد أبيه المهدي وبعد توليه الخلافة ، فالغزوة الأولى وجهَّه فيها أبوه الخليفة المهدي، وفي ذلك يقول الإمام الطبري : ووجهه أبوه - فيما ذُكِر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة[١] غازيا إلى بلاد الروم ،وضم إليه الربيع مولاه ، فوغل هارون في بلاد الروم،ولِقِيَتْهُ خيول « نَقِيطَا» قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد [٢]، فأرجل يزيد، ثم سقط « نقيطا » فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم .

قال : وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي عليه القسطنطينية، وصاحبُ الروم يومئذ « أَغُسْطه » امرأة أليون، وذلك

---

(١) يعني من سنة خمس وستين ومائة .

(٢) هو يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير أرمينية وأذربيجان وكان من الشجعان المشهورين .

أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق[1] في طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفًا على المسلمين ، فأجابته إلى ماسأل .

قال : وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين،وسُلِّمت الأسارى[2] .

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية، منها موقف يزيد بن مزيد الشيباني حينما بارز قائد الروم « نقيطا » فقتله ، وكان ذلك سببا في انهزام جيشه ، وهكذا كان جهد هذا القائد الشجاع يزيد بن مزيد مغنيا عن جهود كبيرة سيبذلها المسلمون في مقاومة الروم لو ظلوا على إقدامهم ومعنوياتهم الأولى ، ولكن حينما تحطمت معنوياتهم بقتل قائدهم سَهُل على المسلمين هزيمتهم .

---

(١) أي المشتملة على ما يحتاجه المسافرون .

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ١٥٢ – ١٥٣ باختصار .

ومن المواقف الجهادية العالية وصول المسلمين بقيادة هارون الرشيد إلى القسطنطينية ، وهذا يُعدُّ مغامرة جريئة لبعد ذلك المكان عن دار الخلافة ، وقد وصلها المسلمون قبل ذلك عدة مرات أهمها وأعظمها وصولهم إليها أول مرة في خلافة معاوية رضي الله عنه بقيادة ابنه يزيد كما تقدم .

فتح هرقلة الأول :

أما جهاد هارون الرشيد في بلاد الروم في خلافته فقد تكرَّر عدة مرات أبرزها ماذكره الإمام ابن جرير الطبري بقوله : فذُكِر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة[1] كتب إلى الرشيد :

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق[2]، فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ماحصل

(١) أي ثبتت طاعة الروم له .

(٢) هذا تعبير عن ظهورها أمام الرشيد بمظهر الضعف .

قِبَلَك من أموالها،وافْتَدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قال:فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه،فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم،من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم،قد قرأت كتابك يابن الكافرة،والجواب ماتراه دون أن تسمعه، والسلام.

ثم شَخَص من يومه وسار حتى أناخ بباب « هرقلة » ففتح وغنم، واصطفى وأفاد ، وخَرَّب وحرَّق واصْطَلم[1]، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرَّقَّة[2] نقض نقفور العهد وخان الميثاق ، وكان البرد شديدًا فيئس نقفور من رجعته إليه ، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقًا عليه وعلى أنفسهم من الكَرَّة في مثل تلك الأيام .

---

(١) أي استأصل .

(٢) الرقة مدينة تقع شمال شرق سوريا- موسوعة ألف مدينة إسلامية ص ٢٥٥ - .

وذكر أنهم احتالوا عليه بإنشاد الشعر المتضمن ذلك، ومنه قول الحجاج بن يوسف التيمي :

نـقـضَ الــذي أعـطـيته نقـفـور وعليه دائــرة البوار تـــــدور
أبـــشـــر أميرَ المــؤمنين فـإنـــه غُنْـمٌ أتـاك بـــه الإلــه كـبير
فلقــد تباشـرت الــرعية أن أتَى بالـنقـض عـنهُ وافــد وبشـير
ورجَتْ يمينك أن تعـجِّل غـزوة تشفى النفوس مكانُها مذكور
نقفور إنك حــين تغــدر إن نَأَى عنك الإمــام لجَاهــل مغرور
أظننت حين غدرت أنـك مُفْلت هبَلَتْك أمــك ما ظننت غُرور

ثم ذكر أن هارون الرشيد لما سمع هذا الشعر قال : أَوَقَدْ فعل نقفور ذلك ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكرَّ راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ماأراد[1] .

ففي هذا الخبر مواقف عالية لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله تعالى،حيث أظهر عزة الإسلام ودولته لما استهان بذلك ملك

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٧ – ٣١٠ باختصار .

فتوح بلاد الروم ١٤٣٨/١١/١٥هـ

الروم ، فكان جوابه بالفعل لا بالقول حيث غزاه بذلك الجيش العظيم الذي خلع فؤاد ذلك الملك فعاد ذليلا يطلب ود هارون الرشيد والصلح معه .

وحينما نقض ذلك الملك الصلح وخان العهد لاستبعاده أن يعود إليه المسلمون في الشتاء ، وعلم بذلك الرشيد عاد إليه بجيشه رغم قسوة البرد وشدة المؤونة،حتى لقَّنه درسًا لا ينساه وأخضعه لما يريد.

ولقد كان غزو الروم في الشتاء مشقةً كبيرة ومخاطرة عظيمة على المسلمين ، ولكن هارون الرشيد أراد أن يَعلَم الروم أن باستطاعة المسلمين أن يصلوا إليهم في أي فصل من الفصول، وأن غزوهم بلادهم في الصيف إنما كان باختيارهم لكونه أيسر لهم .

فتح هرقلة الثاني وماحولها :

ذكر ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة تسعين ومائة هجرية، فقال:وفيها فتح الرشيد هرقلة، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم.إلى أن قال : وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب،واتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها«غاز حاجٌّ»، فكان

يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابيّ :

فَمنْ يَطُلبْ لقاءَكَ أو يُــردْهُ فَبالحَرَمْين أو أقصـــى الثـغور
ففي أرْض العدُوِّ عـلى طِمِرٍّ وفي أرض التَّرفّهِ فَـــوقَ كُورِ
وماحازَ الثغورَ سواكَ خَـلْقٌ من المُتخلَّفينَ عـــــلى الأمـورِ

ثم صار الرشيد إلى الطوانة ، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلَّف عليها عقبة بن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولىّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه استبراق دينارين . وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتابًا نسخته :

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم .سلام عليكم ، أما بعد أيها الملك ، فإنّ لي إليك حاجة لاتضرّك في دينك ولادنياك ، هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتُها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

واستهداه أيضا طيبًا وسرادقا من سُرادقائه، فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأحضرت وزُيِّنت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه، وسلِّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور ، وبعث إليه بما سأل من العطر، وبعث إليه من التمور والأخبصة[1] والزّبيب والترياق[2]،فسلَّم ذلك كله إلى رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقْر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمسين ألف درهم،ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بُزْيون[3]،واثني عشر بازيًا،وأربعة أكلب من كلاب الصيد،وثلاثة براذين. وكان نقفور اشترط ألاّ يخرب ذا الكلاع ولاصملة ولاحصن سنان،واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة،وعلى أن يحمل نقفور

(١) جمع خبيص وهو نوع من الحلوي يصنع من دقيق وتمر وسمن – المعجم الوسيط-.

(٢) هو دواء للعلاج من السموم – معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ص ١٥٦.

(٣) البزيون : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج ، مركَّب من : « بز » ومن : « يون » ، أي يشبه البز . وانظر الألفاظ الفارسية لأدى شير ٢٢ – هامش تاريخ الطبري - .

ثلثمائة ألف دينار [1].

في هذا الخبر مثل من عزة المسلمين وقوة دولة الإسلام في عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد، حيث كان ملك الروم يدفع الجزية والخراج لدولة الإسلام وهو صاغر، ويتذلل له بالكتاب الذي بعثه إليه ليهبه امرأة من السبي، وإنما علا شأن المسلمين وقويت دولتهم لمحافظتهم على الجهاد في سبيل الله تعالى ، فقد كان الرشيد يغزو سنة ويحج أخرى ، وإذا كان هذا هو الغزو الذي يقوم به بنفسه فكيف بالبعوث التي يبعثها مع قادته ؟!

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٠ – ٣٢٢ ، وهذه الحصون التي اشترط نقفور على الرشيد أن لايخربها هي في بلاد الروم وتوجد حاليًا في تركيا – معجم البلدان ٢/ ٣٠٥ ، معجم أماكن الفتوح ص ٣٩ و ٥٤ .

٢ - جهاد الروم في عهد المعتصم –

كان سبب ذلك أن ملك الروم « تَوْفيل بن ميخائيل » لما بلغه أن جيوش المسلمين ذهبت إلى أذربيجان وماحولها لغزو « بابك الخُرَّمِي» غزا بجيشه أطراف دولة الإسلام فهجم على « زبطرة » وقتل رجالها وسبى الذراري والنساء ثم أحرقها .

وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح .

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم صاح في قصره : النفير ، ثم ركب دابته وأخذ استعداد الحرب ، ولَّما لم يتهيأ له الخروج في ذلك اليوم حتى تتم تعبئة الجيش جلس في دار العامة ، ووجه عُجَيف بن عنبسة وعمرًا الفرغاني ومحمد كوته وجماعةً من القواد إلى « زبطرة» إعانة لأهلها ، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده، فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا .

وبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك،

وأمر بتجهيز جيش كبير لغزو الروم ، وسأل:أيُّ بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عَمُّورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية وبُنْكُها [1]وهي أشرف عندهم من القسطنطينية [2].

وذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين المعتصم جهز جيشًا لم يتهيأ لخليفة قبله مثله من اكتمال السلاح والعُدد .

قال : ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللَّمِس وهو على سلوقية قريبا من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم .

وقد قسم المعتصم جيشه ثلاثة أقسام : قسمًا بقيادة الأفشين، وقسمًا بقيادة أشناس وقسمًا قاده بنفسه ، وقد أمر الأفشينَ بالتقدم ثم أمر أشِناسَ بالسير بعده ، ثم تبعهم ببقية الجيش ، وقد جعل الموعد بينهم مدينة « أنقرة »[3].

---

(١) البنك بِضَمِّ الباء أصل الشيء وخالصه .

(٢) تاريخ الطبري ٩/ ٥٦ – ٥٧،الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٤٧،تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٦٢.

(٣) هي عاصمة تركيا، وتقع على نهر ساكرتا ، – موسوعة ألف مدينة إسلامية ص ٧٠-.

أما ملك الروم فإنه بلغه خبر خروج الجيش الإسلامي فأقبل بجيشه يريد مواجهة جيش المسلمين ، فلما كان قريبا من أوَّلهم علم بأن جيشا للمسلمين كبيرًا قد جاز من طريق آخر وهو جيش الأفشين، فأخذ ملك الروم بعض جيشه لمواجهة جيش الأفشين وأبقى بعض الجيش بقيادة أحد أقاربه ليلاقي طليعة جيش المسلمين القادم من ذلك الطريق.

وقد التقى ملك الروم بجيش الأفشين فانهزم مشاة الجيش الإسلامي وقُتِل منهم كثير ولكن فرسان المسلمين كرُّوا على جيش الروم فهزموه وشتتوه ، وانحاز ملك الروم مع قلة من جنده حتى استطاع الوصول إلى مقر جيشه فإذا بهم قد اختلفوا على قائده وتفرقوا عنه فَقَتَل ذلك القائد ، ورجع نحو القسطنطينية ليجمع فلول جيشه .

وقد علم أشناس بذلك بواسطة بعض الأسرى الذين أسرهم فأرسل إلى المعتصم يخبره ففرح بذلك ، والْتَقَتْ جيوش المسلمين حول أنقرة ، وكان أهل هذا البلد قد أخلَوْه وهربوا [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٥٧ – ٦٢ .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف ، منها موقف العزة والشهامة والشجاعة من أمير المؤمنين المعتصم حينما دعا بالنفير إلى الجهاد لما بلغه مصاب المسلمين على يد الروم ، ولقد بلغ به الحماس للجهاد والانتصار للمسلمين إلى حد أنه ركب دابته وأخذ سلاحه حال سماعه الخبر .

ومن ألطف مواقفه وأروعها إجابته نداء تلك المرأة المسلمة الأسيرة التي نادته باسمه ليخلصها من أسر الروم، وفي بيان هذه النخوة والشهامة يقول الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله تعالى :

رُبَّ وامعتصماه انطـــلقت مِـلءَ أفـــواه الصَّبايـــا اليُتَّم

لامست أســـــماعهم لكنها لـــــم تلامس نخـوة المعتصم

ومما يذكر للمعتصم أنه أسرع في تجهيز جيش لنجدة المسلمين المنكوبين وصد الأعداء عنهم ، ثم بدأ في إعداد جيش كثيف لتأديب الأعداء والانتقام منهم .

وإن نهوض المعتصم بذلك الجيش يُعدُّ إظهارًا لعزة الإسلام وقوة دولته ، وردعًا قويًّا لأعداء الإسلام حتى لايتجرؤوا مرة أخرى

على الإغارة على أطراف بلاد المسلمين .

ومن المواقف المذكورة في هذا الخبر موقف المسلمين من أبناء المناطق المجاورة لمدينة « زبطره » حيث هَبَّ جميع الذين يملكون الأسلحة والدواب لنجدة إخوانهم الذين داهمهم العدو ، وهذا فَهْم منهم لفرضية الجهاد وتَعَيُّنه على من داهمهم العدو ومن حولهم ممن تقوم بهم الكفاية ، وقد استطاعوا دحر العدو ووقف تقدمه نحو بلاد الإسلام حتى اضطر إلى التراجع إلى بلاده ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان لدى المسلمين آنذاك ، حيث لم يهتمَّ أهل كل بلد بمصالح بلدهم خاصة ، وإنما عَدُّوا العُدْوان على أي بلد إسلامي عدوانا عليهم جميعًا ، وبهذا الشعور الحي العام يشعر الأعداء أن كل بلد إسلامي موصول بالبلدان الإسلامية الأخرى وأنه ليس بإمكان العدو التوغل في بلاد الإسلام اعتمادًا على بُعد عاصمته وجيشه .

ومن المواقف الرائعة في هذا الخبر مقدرة فرسان المسلمين الفائقة في جزء من الجيش الإسلامي على هزيمة معظم جيش الروم، الذي كان بقيادة ملكهم ، وهذا يُلقِّنهم درسا بليغا ، لأنه لو حصل اللقاء

مع جيش المسلمين الكامل فإن النتيجة ستكون إبادة جيش الروم، ولهذا لم يفكر ملك الروم بالعودة لفك الحصار عن « عمورية » التي تعدُّ من أعظم مدنهم .

فتح مدينة عمورية عام ٢٢٣هـ :

أما فتح « عَمُّورية » من بلاد الروم ، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن المسلمين وصلوا إليها وحاصروها ، وكان لها سور حصين وراءه نفق ، فتحصن أهلها داخلها قال : وكان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية فتنصَّر وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم الحصن[1] فلما رأى أميرَ المؤمنين ظهر وصار إلى المسلمين ، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعًا من المدينة حمل الوادي عليه من مطر جاءهم شديد ، فحمل الماء عليه فوقع السور من ذلك الموضع فكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع فتوانَى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوف الوالي أن يمر الملك على تلك الناحية فيمر بالسور فلايراه بُني، فوجَّه

(١) يعني لم ينصرف عند دخول فلول المنهزمين من الروم إلى عمورية والتحصن بها .

خلف الصُنَّاع فبنى وجه السور بالحجارة حجرا حجرا ، وصيَّر وراءه من جانب المدينة حشوا ، ثم عقد فوقه الشُّرَف كما كان، فوقَّف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف ، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع ، ونصب المجانيق على ذلك البناء ، فانفرج السور من ذلك الموضع ، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علَّقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى ، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشبا غيره وصيَّروا فوق الخشب البراذع ليترِّسوا السور[1] .

فلما ألحَّت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور فكتب ياطس والخصي [2] إلى ملك الروم كتابا يعلمانه أمر السور ، ووجها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام عربي وأخرجاهما من الفصيل، فعبرا الخندق ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى

(١) البراذع جمع برذعة وهي ثوب يوضع على ظهر الحمار أو البغل ليركب عليه- المعجم الرائد-.

(٢) هما من قادة الروم وكانا دخلا عمورية بعد المعركة التي انهزم فيها الروم .

عمرو الفرغاني، فلما خرجا من الخندق أنكروهما فسألوهما : من أين أنتما ؟ قالا لهم: نحن من أصحابكم، قالوا : من أصحاب من أنتم ؟ فلم يعرفا أحدًا من قواد أهل العسكر يسميانه لهم ، ، فأنكروهما وجاؤوا بهما إلى عمرو الفرغاني بن أرنجا ، فوجه بهما عمرو إلى أشناس فوجه بهما أشناس إلى المعتصم ، فساءلهما المعتصم وفتشهما فوجد معهما كتابا من ياطس إلى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جمع كثير ، وقد ضاق بهم الموضع ، وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأ ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصن ، ويفتح الأبواب ليلاً غفلةً ، ويخرج فيحمل على العسكر كائنا فيه ماكان ، أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب ، حتى يتخلص من الحصار ويصير إلى الملك .

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلم منهما العربية والغلام الذي معه ببدرة [1] ، فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عمورية ، فقالا : ياطس يكون في هذا

(١) البدرة كيس توضع فيه الدنانير والدراهم .

البرج ، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيه ياطس طويلا، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخُلَع ، ومعهما الكتاب، حتى فهمها ياطس وجميع الروم وشتموهما من فوق السور، ثم أمر بهما المعتصم فنحَّوهما .

وأمر المعتصم أن تكون الحراسة بينهم نوائب ، في كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها، لِئَلاَّ يُفتح الباب ليلا فيخرج من عمورية إنسان ، فلم يزل الناس يبيتون كذلك نوائب على ظهور الدواب في السلاح ودوابهم بسروجها، حتى انهدم السور مابين بُرجين من الموضع الذي وُصف للمعتصم أنه لم يُحكَم عمله .. إلى أن قال :

فلما كان من الغد قاتلهم على الثلمة ، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه ، وكان الموضع ضيقا ، فلم يمكنهم الحرب فيه، فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور فجمع بعضها إلى بعض ، وصيروها حول الثلمة وأمر أن يُرمى ذلك الموضع، وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه

فأجادوا الحرب وتقدموا .

فلما كان اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة، ومعهم المغاربة والأتراك ، والقيِّم بذلك «إيتاخ » فقاتلوا فأحسنوا واتسع لهم الموضع المنثلم ، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات .

ثم ذكر أن الحرب بالنسبة للروم اقتصرت على القائد المتاخم لتلك الثلمة وجيشه ، وأنه طلب من بقية قادة الروم الذين اقتسموا حراسة البروج حول المدينة أن يشاركوا في القـتال وإلا ذهبت منهم المدينة فأبوا وقالوا : قـد سلم السور من ناحيتنا وليس نسألك أن تمـدنا فشأنك وناحيتك،فعزم هذا القائد هو وأصحابه على الاستسلام للمسلمين.

فلما أصبح هذا القائد وهو « وندو » خرج فتفاوض مع أمير المؤمنين على التسليم مقابل الأمان على الذرية والمتاع والسلاح ، فدخل المسلمون من تلك الناحية واستولوا على جميع ما في عمورية[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٦٣ – ٦٨ باختصار .

وهكذا تم فتح مدينة « عمورية » التي تعدُّ من أعظم مدن الروم وأشدها تحصينا ، وكان من أسباب تعجيل الفتح ماقام به ذلك الرجل المسلم الذي تنصر ظاهرا لمَّا وقع أسيرًا في يد الروم ، وذلك حينما دل المسلمين على نقطة الضعف في سور المدينة ، وهذا موقف يذكر لهذا الرجل فإن الخروج من تلك المدينة المحصنة بغير توجيه من قادتها يعدُّ أمرًا في غاية الصعوبة والخطورة ، وقد خاطر هذا الرجل بحياته من أجل أن يدل المسلمين على مفتاح دخول تلك المدينة المحصنة .

ومما يذكر من المواقف في هذا الخبر ماكان يتمتع به المجاهدون آنذاك من اليقظة ودقة الرصد ، حيث لم يستطع رسول الروم أن يفلت منهم مع أن الروم قد أجادوا اختياره ، حيث اختاروا رجلا يجيد اللغة العربية بفصاحة ، حتى يظن المسلمون أنه واحد منهم إذا خاطبوه، ولقد كان لهذا التفوق في الرصد الحربي أثره الكبير في سير أحداث المعركة ،حيث جنَّب المسلمين خطر الهجوم المباغت الذي خطط له الأعداء .

هذا وإننا لنجد في خبر هذه المعركة عبرًا عظيمة : منها مانتج عن

تكاسل حاكم عمورية في بناء السور لما تهدم من أثر السيل، فلقد جر تكاسله هذا وبالاً عليه وعلى قومه ، وقد كانت عمورية تردُّ الغزاة من قوة ومتانة سورها ، لكن هذا الخطأ الفادح من أميرها كان سببًا في انتصار المسلمين وهزيمة الروم ، ولقد كان هذا الوالي يفقد عاملا مهمًّا من عوامل النجاح في الحكم وهو الحزم .

ومنها تخاذل قادة الروم عن حماية مدينتهم ، واعتبارهم كل واحد منهم أن مسؤوليته منحصرة في حماية الجزء المخصص له من السور، وكانت الحكمة والسياسة الحربية أن يجتمعوا على حماية مدينتهم من ذلك السور المتهدم ، لأن دخول المدينة من جهة يعني الاستيلاء عليها جميعها .

وهذا الموقف المتخاذل الأناني يدل على تفرق قادة الروم، وعدم وجود قائد قدير يخطط لهم وينفذون أوامره .

ومنها أن تركيز المسؤولية في القادة الكبار البعيدين عن ميدان المعركة له أثر كبير في الفشل والهزيمة ، فإن القائد الرومي الذي عزم على مباغتة المسلمين بالحملة عليهم ، ثم الانحياز إلى ملك الروم لم

يكن قادرًا على تنفيذ تلك الخطة إلا باستئذان ملك الروم الذي بينه وبينه مسافة بعيدة ، فإلى أن يذهب الرسول - فيما لو سلم - وحتى يعود تكون المعركة قد حُسمت بينهم وبين المسلمين .

أما قادة المسلمين فإنهم قد عرفوا المبادئ العامة التي يسير عليها قادتهم عادة والأحكام والآداب الإسلامية التي يلزمهم تنفيذها، ثم هم بعد ذلك أحرار في الاجتهاد واتخاذ القرارات اللازمة بعد أخذ مشورة أهل الرأي في جيشهم، ولذلك فإنهم قد اغتنموا فرصًا كثيرة ماكانوا ليستفيدوا منها لو كانوا يرجعون إلى أمير المؤمنين في كل أمورهم .

٣- جهاد السلطان ألب أرسلان مع الروم

السلطان ألب أرسلان هو أحد سلاطين السلاجقة وهو محمد ابن داود جفري بك بن ميخائيل بن سلجوق، وقد بلغت حدود سلطته من أقاصي بلاد ماوراء النهر إلى أقاصي الشام ، ومع ذلك كان تابعًا لخلفاء بني العباس ، وكان كريما عادلا عاقلا ، وقد دخل بعض الأمراء تحت سلطانه لحسن سيرته وعدله .

وقد توفي مقتولا بيد أحد الولاة وهو يوسف الخوارزمي وكان السلطان أرسلان يريد قتله فعاجله يوسف وقضى عليه وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائة هجرية [(١)].

معركة « مَلاذْكُرْد » عام ٤٦٣هـ :

هذه معركة مشهورة حاسمة جرت بين المسلمين بقيادة ألب أرسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس ، وفي خبرها يقول ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية : في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج ، والغرب

---

(١) الكامل لابن الأثير (٨/ ١١٢) .

والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمُّل كثير وزِيّ عظيم ، وقصدَ بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكُرد من أعمال خلاط[1] ، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خُوَيّ من أذربيجان قَدْ عَادَ من حلب ، وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبُعدها وقُرْبِ العدو ، فسيَّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى هَمذان، وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسةَ عشر ألف فارس ، وجدَّ في السير ، وقال لهم: إنني أقاتل محتسبا صابرا، فإن سلمتُ فنعمةٌ من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنَّ ابني مَلِكْشاه وليُّ عهدي .

وساروا ، فلما قارب العدوُّ جعل له مقدمة ، فصادفت مقدمتُه عند خلاط مُقَدَّمَ الرومية في نحو عشرة آلاف من الروم، فاقتتلوا ، فانهزمت الرومية ، وأُسِرَ مقدَّمهم فحُمِل إلى السلطان فجدع أنفه، وأخذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد .

---

(١) خلاط مدينة تاريخية في تركيا في منطقة الأناضول الشرقية، وتطل على الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة وان .

فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة ، فقال : لاهدنة إلا بالرَّي ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاريُّ الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعَدَ الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالْقَهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاءُ مقرون بالإجابة .

فلما كان تلك الساعة صلى بهم ، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ، ودعا ودعوا معه ، وقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر وينهى ، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنَّط ، وقال : إن قُتلت فهذا كفني .

وزحف إلى الروم ، وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجَّل وعفَّر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحَمَل، وحمَلَتِ العساكر معه ، فحصل المسلمون في وسطهم ، وحجز الغبار بينهم،

فقَتَل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم ، وقُتِل منهم مالايحصى ، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى.

وأُسِر ملك الروم ، أسره بعض غلمان كوهرائين فأراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادم الملك : لاتقتله فإنه الملك، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقارًا له ، فأثنى عليه كوهرائين ، فقال نظام الملك : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك ، فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك ، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده، وقال له : أَلَمْ أُرسل إليك في الهدنة فأبيت ، فقال: دعني من التوبيخ وافعل ماتريد ، فقال السلطان: ماعزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح، قال له : فما تظن أني أفعل بك ؟ قال إما أن تقتلني، وإما أن تشهِّرني في بلاد الإسلام ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك ، قال: ماعزمت على غير هذا ، ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها،

وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله في خيمة ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة ، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم : أين جهة الخليفة ؟ فدُلَّ عليها فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيَّره إلى بلاده، وسيَّر معه عسكرًا أوصلوه إلى مأمنه ، وشيَّعه السلطان فرسخًا [1].

وهكذا عشنا مع هذا الخبر الذي ضرب فيه المسلمون بقيادة السلطان ألب أرسلان مثلا عاليا في البطولة والتضحية .

فهذه المعركة الهائلة لايشبهها إلا بعض معارك الصحابة ﷺ كاليرموك ونهاوند،حيث يتقابل المسلمون مع عشرة أضعافهم وأكثر،ثم يكون النصر إلى جانب المسلمين في ساعات معدودة .

ولقد ظهرت القوة المعنوية للمسلمين في هذه المعركة بصورة بارزة، حيث لم يَعُدْ هناك نظر إلى السلاح ، وإنما اشرأَبَّت الأعناق إلى من بيده مقاليد كل شيء جل وعلا ، وأيقن القادة والجنود أنه إذا لم

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٠٩ – ١١٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ١٠٧ – ١٠٨ .

يتداركهم الله سبحانه بنصر من عنده فإنهم لن يكسبوا المعركة أبدا ، ولكنهم قد وطَّنوا أنفسهم على البديل الأعلى ، وهو أن يتقبلهم الله تعالى شهداء،وتعلقت آمالهم بإحدى الحسنيين:إما النصر أو الشهادة .

ولقد كان لقائد المسلمين أثر كبير في تقوية معنويتهم ، وتعبئة مشاعرهم نحو الثبات أمام الأعداء .

ولاننسى أثر العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فقد قام بتأييد السلطان ، وقوَّى قلبه برجاء أن يكون الفتح على يديه ، وبتذكيره بالهدف السامي الذي يجاهد من أجله وهو نصر هذا الدين العظيم الذي وعد الله سبحانه بنصره على جميع الأديان، وأرشده إلى الوقت الأفضل للهجوم على الأعداء ، فتقبل السلطان توجيهاته ، وقوي أمله بالله تعالى .

وهكذا يؤدي العلماء الربانيون دورهم المطلوب منهم في تقوية الروح المعنوية لدى المجاهدين ، وهذا هو السلاح القوي الذي يملكه المسلمون الصادقون ، ويفقده أعداؤهم ، وقد ظهر واضحًا في هذه المعركة أثر هذا السلاح .

أما المحاورة التي جرت بين السلطان ألب أرسلان وملك الروم

فإنها كانت مثلا عاليا في تمثيل أخلاق المسلمين وعلو سياستهم .

وإن هذه المعاملة إضافة إلى كونها تمثل أخلاق المسلمين المعروفة في إكرام الزعماء وتألُّفِهم للإسلام ، فإنها من الناحية السياسية قد ضمنت لزعماء المسلمين حقهم في التكريم والاحترام فيما لو وقعوا أسرى لدى الأعداء لعقود من الزمن .

فللّه در هذا السلطان الكبير والسياسي القدير !!

لقد جاء ملك الروم بِقَضِّه وقَضِيضِه وخيله ورَجلِه وعتاده ليقضي على المسلمين وليمحو الإسلام من الوجود،وكان من غروره أنه أقطع بلاد المسلمين لأمرائه،فكان له بالمرصاد فرقة من جيوش المسلمين أبادت خضراءه وحطَّت كبرياءه،وعاد ذلك الجبار المتغطرس يقبِّل الأرض بين يدي السلطان ألب أرسلان ويتودد له ليقبله نائبا عنه،وذلك منتهى الشعور بالذلة والمهانة،وإذا كان جزء من جيش السلطان أرسلان قد سحق جيشه فكيف لوأحضر السلطان جيشه كاملا ؟!وكيف لو اتفق مع بقية أمراء المسلمين على جهاد الروم ؟ !

المصادر والمراجع

- الألفاظ الفارسية / لأدي شير .
- البداية والنهاية / للحافظ أبي الفداء ابن كثير .
- البدر الطالع / لمحمد بن علي الشوكاني .
- تاريخ الإسلام / للحافظ محمد الذهبي .
- التاريخ الإسلامي / للدكتور أحمد شلبي .
- تاريخ ابن خلدون/ لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون.
- تاريخ الدولة العثمانية / للدكتور علي حسون .
- تاريخ الدولة العثمانية / لمحمد فريد بك .
- تاريخ الطبري / للإمام محمد بن جرير الطبري .
- الدولة العثمانية/ عوامل النهوض وأسباب السقوط/ للدكتور محمد الصلابي .
- استراتيجية الفتح العثماني/ لأحمد سالم .
- السلطان محمد الفاتح / للدكتور عبد السلام فهمي .
- سنن أبي داود/ للحافظ سليمان بن أشعث السجستاني.
- سنن الترمذي / للحافظ محمد بن عيسى الترمذي .
- صحيح البخاري/ للإمام محمد بن إسماعيل الخاري.

- الفتوح / لأحمد بن أعثم الكوفي .
- الكامل في التاريخ / لأبي الحسن علي الشيباني «ابن الأثير».
- مجموع الفتاوى/ للإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
- المختار المصون/ للدكتور محمد بن موسى الشريف.
- مسند أحمد / للإمام أحمد بن حنبل .
- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية/ للدكتور زين العابدين نجم.
- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية الدخيلة/ لرياض غنام.
- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي/ لمحمد دهمان.
- معجم أماكن الفتوح/ للدكتور صلاح الدين المنجد .
- معجم البلدان / لياقوت الحموي.
- المعجم الجغرافي لدول العالم/ لهزاع الشمري.
- المعجم الرائد/ لجبران مسعود.
- المعجم الوسيط/ لإبراهيم مصطفى الزيات.
- موسوعة ألف مدينة إسلامية/ لعبد الحكيم العفيفي.

فهرس الموضوعات

المقدمة..... ٥

تمهيد ٧

فتوح بلاد الروم في عهد الأمويين ١١

جهاد الروم في عهد معاوية ١٢

غزوة القسطنطينية ١٣

جهاد الروم في عهد عبد الملك والوليد ١٦

الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك ١٦

فتح عمورية ٢٧

فتح نقفورية ٣٠

فتح السماوة الكبرى ٣٤

فتح المسيحية ٤٠

فتح بدروق ٤٤

جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك ٤٧

محاصرة القسطنطينية ٤٧

جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك ٥٤

فتوح بلاد الروم في عهد العباسيين ٥٩

جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد ٦١

غزوة القسطنطينية ٦١
فتح هرقلة الأول ٦٣
فتح هرقلة الثاني وما حولها ٦٦
جهاد الروم في عهد المعتصم ٧٠
فتح عمورية ٧٥
جهاد ألب أرسلان مع الروم ٨٣
معركة مَلاذكُرد ٨٣
المصادر والمراجع ٩١
فهرس الموضوعات ٩٣